14

تفصيل الأطفال

لم يحصل من قبل أن ساعدت التقنية كثيراً من الناس، وأثارت في الوقت نفسه سلسلة من الخلافات الأخلاقية والاجتماعية والسياسية، كما حصل مع تقنيات الإنجاب المساعَد. أكد آخر الموضوعات الساخنة -تفصيل الأطفال- أن ما يفعله الناس في حياتهم التكاثرية لا يزال يجلب تغطية إعلامية واسعة في جميع أنحاء العالم، ويستقطب المراسلين العنيدين، ويثير زوبعة آراء من قبل كل شخص حي.

لكن ماذا يوجد في الهندسة الحيوية للأجنة كي يثير اضطراباً عالمياً. ينظر الناس إلى تفصيل الأطفال على أنه مقدمة للاستنساخ، كما يحصل مع المدمنين الذين يبدؤون بتدخين الماريجوانا، ثم يرتقون إلى إدمان الأدوية القوية.

التسوق على شبكة المعلومات؛ بحثاً عن خصال مرغوبة

تخيلي عالماً تستطيعين أن تتسوقي فيه ضمن خصوصية منزلك؛ بحثاً عن بيوض أو نطاف بشرية، اعتماداً على الجنس، والعرق، والصحة، والجمال، ودرجة الذكاء، والشخصية، والصفات الأخلاقية، ولون العينين، وقوام الشعر، والموهبة الفنية، ونمط الجسم. ماذا تقولين إذا أخبرناك أن هذا العالم موجود اليوم؟

تصاعد الخوف من تصميم الأطفال حسب الطلب إلى درجة الصخب العالمي عندما أعلن مصمم الأزياء رون هاريس أنه قد وضع بيوض عارضات أزياء مجلة كوزمو في المزاد العلني بسعر يبدأ من 15,000 دولار. منحت هذه الحيلة هاريس ومتبرعاته تغطية إعلامية في أكثر من 5,000 مقالة إخبارية و500 برنامج تلفازي، فضلاً عن المتبجحين المتحمسين من مضيفي جميع برنامج الحوار الإذاعي، أو المتعلق بالأخلاقيات الحيوية في البلاد.

obeikandl.com

غضبت المنظمات الطبية التي تمثل جميع الاختصاصات في حقل طب التكاثر غضباً شديداً، وأطلقت صرخات هجومية تعكس عدم موافقتها. أصدرت الجمعية الأمريكية لطب التكاثر الإدانة الآتية:

نحن نعتقد أن موقع «ملائكة رون» قد خرق القواعد الأخلاقية التي وضعتها الجمعية الأمريكية لطب التكاثر، وشجع الآباء الراغبين على توقعات غير واقعية، وسوّق ما كان دائماً عملية تبرع طوعية، وقدّم إغراءات مفرطة للمتبرعات المحتملات، وهو قادر على استغلال الأشخاص سهلي المنال. -الجمعية الأمريكية لطب التكاثر.

هل بإمكانك الوثوق بمواقع التبرع على شبكة المعلومات؟

سوف يكون همك الأول التوثق من أنك تتعاملين مع موقع مرموق على شبكة المعلومات. اسألي طبيبك المختص إذا كان يعرف عن عمليات الموقع، وإذا كان ينصح باستعماله. تحدثي إلى صديقاتك وقريباتك و جاراتك وزميلاتك في العمل اللواتي استعملن متبرعة من قبل. اتصلي بمنظمات الإخصاب المحلية، أو راجعي القائمة الواردة في المصادر. إذا لم يكن أحد قد سمع بالموقع الذي وجدته على شبكة المعلومات، فاطلبي من مدير الموقع رسائل توصية. إذا بقيت غير مقتنعة بأن هذا موقع مرموق، فلا تتعاملي معه.

لا بد أن طبيبك يعرف «بنوك» تبرع تناسب حاجاتك. يتعامل مختصو التكاثر مع أكثر من «بنك» تبرع. سيكون من دواعي سعادتهم أن يوجهوك في الاتجاه الصحيح. لا يشجِّع معظم الأطباء المرموقين على التعامل مع مواقع الشبكة التي تعرض الخصال الجسدية في المزاد.

لا يعني كون المتبرعة فاتنة جسدياً، أو كون المتبرع قد حصل على علامات عالية في مدرسة محترمة أن طفلك سيحمل الخصال نفسها. يحمل كل شخص صبغيات صاغرة، لذلك لا يوجد ضمان أن ابنك لن يرث حاجباً واحداً، أو أنفاً مفلطحاً، أو ذقناً مستدقة. إضافة إلى ذلك، من يستطيع أن يضمن أن المتبرعة لم تجرِ إزالة شعر ليزرية أو زرع فك

سفلي أو عملية تجميل أنف؟ لكن إذا كان اهتمامك ينصب على الجمال والعقل، وكنت تؤمنين بروح المقاولة، فاطلبي إذاً سجلات طبية ودراسية قبل وضع رهانك، وتوثقي من مصداقيتها، ثم محّصيها جيداً قبل أن تمضي قدماً، بحذر.

العلم هو التقنية: لمحة تاريخية

لا شك في أن التقنيات تتقدم بسرعة مذهلة. هذا يعني أننا يجب إما أن نقبلها أو أن نتخلف إلى الأبد وراءها. أثبت التاريخ على مدى ما يقارب 2,000 سنة أن الناس يخافون مما لا يفهمونه. لا يهدد وجود تقنيات التكاثر السلطة العقلية لرجال الكنيسة فحسب، بل يقوض أيضاً قوتهم السياسية والاقتصادية.

تحدت السلطات والكنيسة الاختراقات التقنية على مدى خمسة قرون. خذي كوبرنيكوس وغاليلو ونيوتن على سبيل المثال، وهم أعظم ثلاثة علماء في التاريخ. مع أن العامة عدوا كلاً منهم رجلاً لامعاً، فإن قادة المجتمع وصموهم بالهرطقة بسبب نظرياتهم واختراعاتهم. اشتملت بعض المواقف التي واجهوها بسبب إعلان أفكارهم، هم وعقول موهوبة أخرى، الإدانة والتمييز والمضايقة المستمرة والتهديدات والقذف والازدراء والشتم والمراقبة والإقامة الجبرية والتعذيب، وحتى الحرق على العمود. لماذا؟ يخشى الناس من التغيير. يُترجم التغيير لدى بعض الناس إلى فقدان السيطرة.

حصل الخلاف القديم بين العلم والمسيحية؛ لأن كل واحد منهما يجاهد لفهم العالم حوله بتقديم الحلول للمشكلات اليومية. تقدم المسيحية تفاسير من الماضي، ويقدم المشرعون التفاسير عن الحاضر، ويقدم العلماء التفاسير عن المستقبل. ولما كانت فلسفة كل فرع من فروع المعرفة هذه تختلف عن فلسفة الآخر، فإنها كثيراً ما تتصادم. حتى اليوم، إذا تغير شيء ما كثيراً، فإن كثيراً من الناس ينظرون إليه على أنه سلبي، أو أسوأ من ذلك، على أنه شيطاني.

ربما كان أوثق الأمثلة على تحرر نظرة المجتمع من خوف المجهول وتبني تقنية معينة هو طريقة نظر الناس اليوم إلى التلقيح ضمن الزجاج. عندما ظهرت صور الطفلة لويز براون على الصفحة الأولى لجريدة لندن ديلي ميل في 25 تموز عام 1978، بعد أن

أعطت مكسباً بلغ 500,000 دولار لأبوي الطفلة مقابل الحقوق الحصرية للصورة، تبادل المشككون صيحات: «أوه» و «آه» مع صرخات من قبيل «عجيبة الخلقة» و «فرانشكتاين».

لكن من السهل أن نرى ماذا حصل عندما ننظر إلى الوراء. كان النقاد يخشون أن لويز براون، المولودة المغطاة باللحاف، التي تزن 5 أرطال و 12 أوقية، والتي ولدت قبل منتصف الليل بـ 13 دقيقة، سوف تغير مستقبل جنسنا البشري. أعلنت وسائل الإعلام بخطوط عريضة عن ولادة لويز براون غير التقليدية. كان رجال الدين المسيحي المنتقدون يعتقدون أن الولادة إذا لم تحصل بالشكل الطبيعي، فإن الأطباء يؤدون دور الرب. كان والدا لويز براون سعيدين؛ لأن حلمهما بإنجاب طفل قد تحقق في النهاية. وكان أطباء براون يتيهون بهجة؛ لأنهم اكتشفوا بعد مئات المحاولات طريقة ناجحة لتجاوز العقم بصنع الجنين خارج الرحم. عرفوا أنهم بتلقيح بيضة ليزلي براون في طبق بتري، ثم نقل البيضة الملقحة إلى بطانة الرحم بعد يومين ونصف، قد استطاعوا صنع حياة.

قام أحد أطباء براون، روبرت إدواردز، بعمل جبار عندما تنبأ بما سيكون عليه التلقيح ضمن الزجاج في المستقبل، عندما قال، «آمل أنه في أثناء سنوات قليلة، سوف يكون التلقيح ضمن الزجاج عملية شائعة». تستطيع لويز براون بعد 26 سنة وبعد ولادة نحو مليوني طفل بهذه الطريقة أن تستمتع بحقيقة أن لها كثيراً من النظراء. وبينما أصبح العالم يتقبل التلقيح ضمن الزجاج على أنه ممارسة شائعة نسبياً كما تنبأ الدكتور إدواردز، فإن التقنيات الحديثة جداً لا تزال تثير التساؤلات.

ما هو تفصيل الأطفال؟

وضع الصحفيون اصطلاح «تفصيل الأطفال» لوصف كيف يعطي مهندسو الجينات رخصة للأزواج لاختيار الخصال المرغوبة لأطفالهم الذين لم يولدوا بعد. لكن المجتمع العلمي لا يوافق على هذا الاصطلاح بسبب طبيعته المنذرة بالمشكلات. يرفع هذا الاصطلاح مخاوف العامة إلى أقصى الحدود، كما يظهر في فيلم «غاتيكا» الذي ظهر عام 1997، حيث يظهر فيه عالم تتحكم فيه نخبة مبرمجة وراثياً مصممة لإلغاء الصفات البشرية غير المرغوب فيها، مثل قصر النظر والصلع، عن طريق الهندسة الجينية.

كل ما كتب عن تفصيل الأطفال تقريباً مفعم بالإثارة. يجب أن يبحث المرء عميقاً للوصول إلى حقيقة الأمر؛ إذا تركت جميع حجج الخلاف جانباً، فالأمر يتعلق بالأزواج الذين يحاولون أن ينجبوا أطفالاً. لو كانت الخصوبة سهلة، لما راهن الناس على التقنيات الجديدة؛ بحثاً عن حلول. يضع هؤلاء الأزواج في نهاية المطاف قلوبهم وأرواحهم وأموالهم على خط النار، فضلاً عن الثقة المطلقة في أطبائهم (وفي قوى أعلى في كثير من الأحيان) أملاً في الحمل.

ما لا تقرئينه كثيراً، وأنت تبحثين في مقالات تفصيل الأطفال هو الألم الشديد والعذاب الذي يعانيه الأزواج عندما لا يحصل حمل على الرغم من كل ما يقومون به. الأمر لا يتعلق بأشخاص يائسين يبحثون عن حلول يائسة؛ إنه يتعلق بأشخاص يحدوهم الأمل، وهم يبحثون عن حلول معقولة.

أطفال في سلة المشتريات؟

زاوج عالم الأحياء لي سيلفر من مدينة برينسيتون بين علم الوراثة والمجال الصناعي للعقم، بوضعه مصطلح علم الجينات التكاثري. استعمل سيلفر هذا الاصطلاح في كتابه إعادة تكوين جنة عدن عام 1997، لوصف التقينات الجينية التي تعدّل عملية التكاثر أو تتحكم فيها. ذكر أن علم الجينات التكاثري يهتم بمنع الأمراض الجينية مثل التليف الكيسي وفقر الدم المنجلي. احتج المشككون في أن علم الجينات التكاثري هو العلم الذي يشحذ حركة تفصيل الأطفال بالطاقة، مصرين على أنه ليس أكثر من مجرد نمط منمق من الداروينية المثالية، أو علم تحسين النسل (علم التلقيح الانتقائي لتحسين الأجيال اللاحقة). عرّفوا علم الجينات التكاثري، الذي ناقشه سيلفر علناً عام 1985، على أنه علم يتعامل مع الأجنة التي لم تولد، ولديها خصال محددة -من الجنس إلى لون الشعر إلى الموهبة الموسيقية- يختارها الأهل سابقاً.

أطفال الهندسة الجينية

راد مختص الأجنة جاك كوهين تقنية حديثة جداً لمساعدة النساء العقيمات على الحمل تسمى نقل الهيولى. هذه التقنية امتداد للتلقيح ضمن الزجاج، حيث يعرض على

الأزواج استعمال هجين بين التلقيح ضمن الزجاج، والتلقيح ضمن الزجاج باستعمال بيضة متبرعة. يتضمن نقل الهيولى أخذ بيضة من امرأة مرت بمحاولات غير ناجحة من المعالجة بالتلقيح ضمن الزجاج وحقن هذه البيوض بهيولى (المادة الهلامية التي تبقي محتويات الخلية في مكانها) مأخوذة من متبرعة خصبة.

تقول نظرية كوهين: إن البيوض ذات النوعية السيئة، مثل بيوض النساء المتقدمات في السن لا يمكن أن تصنع أجنة حية؛ لأنها تفتقر إلى الطاقة الكافية للانقسام. تأتي الطاقة في الخلايا من المتقدرات، وهي عضيات صغيرة ضمن الهيولى تنتج الأدنين ثلاثي الفوسفات، وهو الوقود الذي يبقي الخلية حية. وجد كوهين أنه إذا نقل الهيولى من بيضة متبرعة أقل عمراً وأكثر سلامة، إلى بيضة المرأة الأكبر سناً، فإنه يستطيع تنشيط البيضة المسنة بمتقدرات طازجة.

عدت الصحافة اكتشاف كوهين خرقاً تقنياً عام 1997 عندما ولد طفل باستعمال نقل الهيولى. لكن لم تكن هذه المعجزة خالية من النقص. بعد أربع سنوات، أذهل كوهين وزملاؤه الذين يعلمون في مؤسسة طب وعلم التكاثر في سنت بارناباس في ولاية نيوجيرسي الباحثين في علم الأخلاق الحيوية بالحالة الجينية لاثنين من 17 طفلاً ولدوا عن طريق نقل الهيولى الذي أجري في المركز. نشر علماء الأجنة تقريراً يدعي أنهم نقلوا للأطفال أجزاء من DNA المتقدرات في أثناء النقل.

كان ذلك الإعلان مهماً على عدة مستويات. إنه يعني أولاً أن الأطفال الذين ولدوا لديهم ثلاثة آباء من الناحية الجينية، الأم والأب ومتبرعة DNA المتقدرات. ثانياً، إنه يعني أن البنات المولودات سوف يمررن DNA متقدراتهن غير العادي إلى أولادهن (يورث DNA المتقدرات فقط عبر البيوض) ونتائج ذلك غير معروفة. ثالثاً، إنه يعني أن كوهين قد صنع أول طفل هندسة جينية.

عدم وضوح الأصول

يقول نقاد نقل الهيولى والاختراقات الجينية الأخرى: إن العلم يجعل معايير الأبوة أقل وضوحاً. عندما يتبنى زوجان طفلاً، فمن الواضح أن الأم التي تخلت عن حقوقها

في طفلها هي الأم التي ولدت الطفل، لكن التقنيات مثل التلقيح ضمن الزجاج باستعمال بيوض المتبرعات، والحمل التقليدي بالإنابة، ونقل الهيولى تخلق وظيفتين وراثيتين، مما يجعل التعريف التقليدي للأبوة مبهماً.

جعلت هذه المخاوف وغيرها إدارة الرئيس جورج بوش تمنع إجراء العملية عام 2001. قرر المسؤولون الحكوميون أن أي تقنية تتضمن نقل المواد الوراثية دون جمع بيضة مع نطفة تحتاج إلى تنظيم من إدارة الطعام والدواء. يجب أن يسافر الأزواج الأمريكيون المهتمون بهذه التقنية عبر المحيطات إلى بلاد مثل لبنان، حيث يسمح بهذه التقنية. معظم النساء المستعدات للسفر نصف العالم أملاً في إنجاب طفل، نساء في أواخر الثلاثينيات وليس لديهن وقت للانتظار.

ماذا لو كان كل ما تحتاجين إليه هو معجزة؟

لم ينجح أي شيء قمنا به. كنا أنا ومايك لا نزال نحاول أن نتخطى حزننا الذي شعرنا به بعد ثلاث دورات علاجية خائبة عندما أخبرنا الدكتور بوتر عن نقل الهيولى. كنت قد وجدت متبرعة، لكنني قررت أن آخذ إجازة ثمانية أشهر، وحينما أصبحت جاهزة، علمت أن إدارة بوش قد منعت إجراء العملية. أصبت بإحباط وسخط شديدين -اختفى مرة أخرى أملي الوحيد في إنجاب طفل. -**جانيتّه، 36، مندوبة مبيعات.**

تذكري أن التقنيات الحديثة قد أعادت اختراع الطرق التي حملت بها ملايين النساء. لم يعد الإنجاب بلون أبيض أو أسود؛ هناك كثير من المناطق الرمادية. لهذا عليك أن تتحضري أنت وزوجك ليس فقط للمشاعر المختلطة التي قد تشعرين بها عندما تستعملين تقنيات التكاثر، بل أيضاً الاعتراضات المتعلقة بالقيم والأخلاق التي قد تواجهينها من الناس الذين لا يتفقون معك في الرأي. الحسن في الأمر أن الأشخاص الوحيدين الذين يجب أن يوافقوا على خيارك التكاثري هما أنت وزوجك. لا يتطلب قراركما إذن أي شخص آخر.

معالجات الملاذ الأخير

أصبحت الأسر التي تصنع طفلاً لمجرد أن يصبح متبرعاً لأخ مريض موضوعاً لجدال عام واسع. يتركز الجدل حول سؤال واحد: «هل من الأخلاقي أن يستعمل الآباء طفلاً لم يولد «على أنه مجمّع نسج» لشفاء أخ مريض؟

اعترضت المجموعات المناصرة للحياة بأن استعمال الطفل الذي لم يولد لشفاء طفل موجود عملية غير أخلاقية وغير ديموقراطية، وهو يحوّل الجنين الذي لم يولد إلى سلعة مع سابق علم. أطلق الصحفيون على الإخوة الذين لم يولدوا الإخوة المنقذون. يدعي خبراء الطب أن المخاطر على الإخوة الذين لم يولدوا منخفضة، وأن المعالجة الناتجة تفيد جميع أفراد الأسرة. علماء علم الأخلاق الحيوي قلقون من أن استعمال الاختبارات الجينية بهذه الطريقة يفتح بوابات الفيضان للآباء، ليختاروا خصال طفلهم غير المولود أيضاً، مما يحول مدة ما قبل الحمل إلى تجربة نفسية مماثلة لانتقاء محتويات الخزانة أو سيارة جديدة أو منزل مصمم بحسب الرغبات.

في آخر الأمر، إذا اضطرك حظك الأسود إلى مواجهة مثل هذه الحالة، فعليك أن تقرري إذا كان إنجاب طفل لإنقاذ حياة طفلك الحي يفيد جميع المعنيين، أو إذا كان سيحول المولود الجديد إلى سلعة.

اتخاذ قرارك الخاص

تساعدك معرفة موقفك من تفصيل الأطفال في اتخاذ القرار الصحيح المناسب لك ولأسرتك. إن لم يكن أي شيء آخر، فإن الخلافات التي تحيط بالموضوع تلقي الضوء على مخاوف العامة المتنامية حيال الخيارات التي يواجهها الأزواج في حياتهم التكاثرية. في حين أن التقنيات الحديثة لا تزال تلقى معارضة من قبل المجموعات المناصرة للحياة، وعلماء علم الأخلاق الحيوي والمجموعات الدينية. فمن الواضح من تساهل القوانين الحكومية أن نظرة المجتمع تتحول بالطريقة نفسها التي حصلت بعد

ولادة لويز براون. إذا أعاد التاريخ نفسه، فبعد 20 سنة من الآن سوف يقبل المجتمع تقنيات مثل التشخيص الجيني قبل الزرع والفرز المجهري بالطريقة نفسها التي نقبل بها التلقيح ضمن الزجاج اليوم.

ما الأسئلة التي يجب أن تسأليها؟

يمنحنا التقدم في طب التكاثر وفرة غنية من الاحتمالات. قد نكون، من ناحية، قادرين قريباً على شفاء عدد كبير من الأمراض الجينية مثل داء الزهايمر، لكن من ناحية أخرى، فإن تغيير نوعنا البشري -القدرة على تعزيز عقولنا ومزاجنا وذاكرتنا ونحن نختار معدل ذكاء أطفالنا وشخصياتهم ومواهبهم الموسيقية وغير ذلك- قد يؤدي بنا إلى بحر من التشابه وعدم الاختلاف. عندما تتسارع التقنية بمعدل أسرع من فهمنا الأخلاقي، فإننا نتصارع مع عدم الارتياح الذي نشعر به في أنفسنا.

إذا أجبت بنعم عن أحد السؤالين الآتيين، فقد تكون إحدى التقنيات الحديثة مناسبة لك.ناقشي الأمر مع زوجك، ومع طبيبك قبل المضي قدماً:

- هل ستختارين الخصال المرغوبة لطفلك الذي لم يولد، إن كان بإمكانك فعل ذلك؟
- إذا لم يكن لديك خيار آخر، فهل ستنجبين طفلاً فقط بهدف أن يكون متبرعاً لأخ مريض مرضاً مميتاً؟

obeikandl.com

ضمن قشرة بيضة

- تحدثي إلى الأزواج الذين اشتروا بيوضاً من «بنوك» التبرع، أو اسألي نصيحة طبيب الغدد الصم المختص في التكاثر.
- افهمي أن الناس لا يتشابهون في مشاعرهم حيال التقنيات الحديثة. في الواقع، تنبذها بعض المجموعات بالكامل. يجب أن تعرفي ما الذي يجب أن تبقيه في سرك (إذا كان هناك أي شيء)، وما الذي يجب أن تشاركي فيه الآخرين؟
- يجب أن تدركي العواقب الناتجة إذا قررت أن تختاري الخصال المفصلة لطفلك الذي لم يولد. لا يضمن جمال المتبرعة أو علاماتها الممتازة في المدارس الراقية أن طفلك سيملك الخصال نفسها.
- اقرئي دائماً التفاصيل قبل أن توقعي أي اتفاق، خاصة إذا كنت تشترين البيوض على شبكة المعلومات.استشيري دائماً محامياً مرموقاً يختص في الإنجاب بمساعدة طرف ثالث.
- فكري في حاجات أسرتك عندما تستعملين تقنيات التكاثر؛ حتى تستطيعي اتخاذ أفضل قرار ممكن.
- عندما تتخذين قراراً، اثبتي وراء قرارك. الأشخاص الوحيدون الذين يجب أن يكونوا موافقين عليه هم أنت وزوجك.

obeikandl.com